وهذه الفكرة بالذات ، بشأن الوحدة والتجزئة، هي مفتاح الكتاب كله . ذلك ان الفصول الخمسة عشر الباقية كان يمكن ان يكون عنوانها « نصر مع الوحدة ، وهزيمة مع التجزئة » . والكاتب يتناول — كما قلنا — حملات الافرنج ، مبتدئا بلحظة اقتحامهم للوطن العربي عن طريق بوابته الشمالية .. انطاكية في تشرين الاول ١٠٩٨ ، ويقلب صفحات هذه المرحلة الفاصلة في تاريخ العرب ليستخرج منها درسا يكرره بالحاح مستديم: حيثما تكون وحدة يكون انتصار ، وفي اية معركة خاسرة فتش عن التجزئة والانفصال . وهو في الحالين يختتم الفصل بالعبارة التلخيصية ، فاذا كانت الواقعة المقصودة في حملات الافرنج ومعارك العرب معهم ، انتهت بهزيمة للعرب واحتلال لديارهم ، جاء بما يقابل الواقعة من معارك العرب الخاسرة في اطار قضية فلسطين المعاصرة ، ليقول بعدئذ « وما أشبه الليلة بالبارحة » ! واذا كانت الواقعة تمثل نصرا مظفرا حققه العرب على الافرنج بفضل وحدتهم وتماسكهم وشجاعة قيادتهم وحكمتها ، جاء بواقعة من حاضر العرب — وهو حاضر الخذلان والاحتلال والتجزئة — ليقول في نهاية الفصل « وما أبعد الليلة عن البارحة » ! وان مقصد الكاتب في الحالين واحد وثابت ، وهو البرهنة سواء بالادلة التاريخية او بالقرائن المعاصرة ، على ان الوحدة هي طريق القوة والانتصار وتحرير الارض وعلو الشأن ، وان التجزئة والتفسخ والتعدد القيادي وتنابذ الحكام واستبداد الزعماء ، طريق المهانة وضياع الحقوق والتمكين للغزاة واحتلال ديار العرب .

نحن يقارن المؤلف بين قيادة صلاح الدين الايوبي الموحدة ، وبين الاوضاع القيادية الراهنة، وكذلك حين يقارن بين موقف صلاح الدين من القدس واصراره الجبار على تحريرها ، ورفضه مساومة الافرنج على أي مقدار من السيادة عليها ، وبين بعض المواقف المطروحة في الساحة العربية الراهنة ، وكذلك حين يقارن بين دولة الوحدة التي هزمت الافرنج في دمياط (١٢١٨ — ١٢٢١م)، وبين دول التجزئة الان حيث يختم جواز سفر المواطن العربي بعبارة « ممنوع العمل بأجر وبدون اجر » ، في جميع هذه الحالات ينبغي ان نتوقع خلوص المقارنة الى عبارة الكاتب الجاهزة « وما أبعد الليلة عن البارحة » ... الا انه حين يتحدث في بقية الفصول عما أصاب العرب ، في الماضي أمام الافرنج وفي الحاضر امام الغزوة الصهيونية، من هزائم واغتصاب وعدوان واذلال ، فانه يؤكد في ذيل كل فصل أن التاريخ يعيد نفسه ، و« ما أشبه الليلة بالبارحة » ، ذلك ان العلة واحدة في الماضي كما في الحاضر ، انها التجزئة لا غير .

نعم ، ان التاريخ في نظر الكاتب يعيد نفسه ويكررها في هذه المنطقة بصورة تلامس التطابق . وفيما يتعلق بالغزوتين المذكورتين للوطن العربي، غزوة الافرنج وغزوة الصهاينة ، ان الاسباب هي هي ، والنتائج هي هي ، وطريق الخلاص هو هو: « فالدين اتخذ ستارا وشعارا في الحملتين، ففي الاولى كان الصليب هو الشعار ، وفي الثانية كان الشعار هو نجمة داود ... وكان الهدف الظاهر في الاولى « انقاذ القبر المقدس » ، وفي الثانية كان الهدف «اعادة بناء هيكل سليمان».ولكن الواقع الذي لا مراء فيه — يضيف المؤلف — ان الحملة الصليبية كانت مجرد غزوة استعمارية استيطانية كالغزوة الصهيونية المعاصرة سواء بسواء » ... ويسوق الكاتب الامثلة والادلة من بطون الكتب التاريخية ، وكذلك من مطالعة الواقع الحالي ، ليثبت « ان الدين الحق براء من الحملتين » ، وان « الحملة الصليبية في العصور الوسطى تكاد ان تكون متشابهة بل متطابقة مع الحملة الصهيونية في العصر الحديث » .

بناء لما قلناه سابقا (الحاشية رقم ٢) من ضرورة التمييز بين التاريخ وبين الكتابة السياسية، لا نرى داعيا لالقاء نظرة تقويمية على الكتاب من زاوية تاريخية ، ومع ذلك فلا بأس من استعراض عابر لمجريات التطورات التي يرافقها المؤلف . انه كما قلنا يبدأ باقتحام الافرنج لانطاكية في ١٠٩٨(٤) بينما كان حكام بغداد العباسيون وحكام دمشق السلاجقة وحكام القاهرة الفاطميون لا مبالين ولا مكترثين ، وبينما كانت حرب «عربية» تدور بين ملك دمشق وشقيقه ملك حلب ! كانت التجزئة هي خريطة المنطقة : امارة في انطاكية ومملكة في حلب ومملكة في دمشق وامارة في حمص وامارة في الموصل وامارة في حماه وامارة في حصن عزاز . ذلك كله في ديار الشام ، وفي غيرها خلافة فاطمية شيعية في القاهرة ، وخلافة عباسية